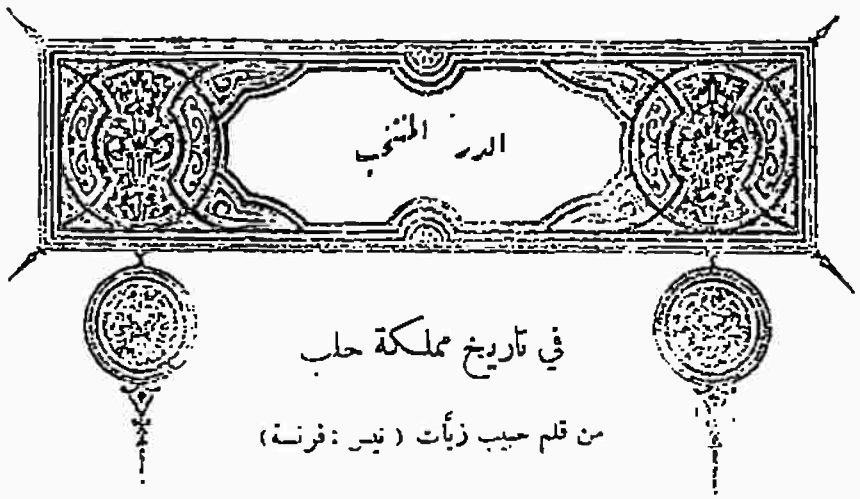

في تاريخ مملكة حلب

من قلم حبيب زيّات (نيس : فرنسة)

ابن شدّاد كتاب جمع فيه تاريخ وخطط حلب ودمشق والجزيرة . وسماه « الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة » . ولا يزال مخطوطاً . ولا نعلم منه نسخة كاملة في الخزائن العامة . ومنه مجلّدان فقط في خزانة بريتيش موزيوم من نسختين مختلفتين . وهما الجزء الاول رقم add. 23334 في وصف حلب وملحقاتها . بخط لا بأس به ، لا يخلو من هنات وتحريفات في النقل . والجزء الثالث رقم add. 23335 في وصف دمشق واعمالها . ولكن ، لسوء الحظ ، اصاب هذا المجلّد بلل بالماء ، ورطوبة شديدة فالتصقت اوراقه ، وطمست سطوره . فلم نجد سبيلاً الى نسخه او تصويره اطبعه ، كما كان في النية . ولم نستطع ان ننقل عنه الا ما قلّ وندر .

ويشبه الجزء الاول المذكور ، في اقسامه ومشتملاته ، الجزء المحفوظ في دار التحف الاسيوية في لينينغراد ، رقم ١٦٢ من برنج البارون ثون روزن[1] . انتهى منه كاتبه سنة ١٠٢٢ للهجرة (١٦١٣ م) ومثله ، فيما اخبرنا الاستاذ ريتر ، جزء آخر رقم ٣٠٨٤ في خزانة جامع ايا صوفيا . جمع بين القسم الاول وثلاثة ابواب من القسم الثاني فقط . واحسن من هذه النسخ كلّها نسخة ثمينة فيها نقص يسير ، بخط غاية في الاتقان والوضوح ، وقفنا عليها في خزانة الاسكيال رقم ٧٣٠٧ يظهر انها بقلم المؤلف ، اذا صح تعليق احد القراء في

(١) *Notice sommaire des Manuscrits Arabes du Musée Asiatique* par le Baron von Rosen. St Petersbourg, 1881, p. 99.

زاوية احدى الورقات الاخيرة . ومما يؤيد هـذه النسبة ، بعض التأييـد ، بقاء مواضع بياض في بعض الصفحات . ومن الغريب وجود بعض اوهام وملاحن في الضبط ؛ لا ندري هل هي سبق قلم من المؤلف ام من غفلات الناسخ.

ومن الجزء الثالث رواية ببعض التصرف في مجلد في خزانة جامعة ليدن في هولاندة Arab. 1466 جعلها كاتبها كتاباً مستقلاً برأسه سماه « برق الشام في محاسن اقليم الشام » (كذا). وقد قابلنا بعض صفحاته على ما نقلناه من لوندرة، فوجدنا ان الكاتب اسقط بعض عبارات الاصل ، واغفل كل ما جاء فيه عن امراء دمشق ، وترك مواضع نقص وبياض . ولم يحسن التشيل والنقل احياناً . ومثل هذا التصرّف الجائر نكبة لتاريخ دمشق بعد ما اصاب نسخة لوندرة من التلف. بحيث اننا لا نعلم اليوم رواية حُفظت فيها صفة خطط حاضرة الامويين واعمالها ، كما صدرت من قلم ابن شدّاد بالكمال والامانة.

وابن شداد هذا هو عزّ الدين محمد بن علي بن ابرهيم بن شدّاد الحلبي الكاتب المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة (٦/١٢٨٤ م). وهو غير ابن شدّاد مؤلف سيرة صلاح الدين المطبوعة باسم « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، ولقبه فيها بهاء الدين ، واسمه يوسف بن رافع بن تميم بن شداد . توفي في حلب في صفر سنة ٦٣٢ (١٢٣٤ م) . وقد ظنّ صاحب تاريخ نهر الذهب ان مؤلف الكتابين واحد ، وقال انه لم يقف على تاريخ منسوب لابن شداد خاص بحلب[1] (ج ١ ص ١١) . وهذا الوهم عجيب ممن اراد الاحاطة بتاريخ وطنه ، وتفرغ للتأليف فيه . واعجب منه جهلـه موقع عمّ من اعمال حلب القديمة ، وادّعاؤه انها اختصار اسم عَمق او تصحيفه (كذا)[2] . وقـد كان يكفيه ان يراجع معجم البلدان ليقرأ فيه قول ياقوت الحموي : « عمّ قرية غناء ذات عيون جارية . واشجار متدانية بين حلب وانطاكية. وكل من فيها اليوم نصارى »[3]

---

١) ومن وهم ايضاً في نسبة تاريخ حلب الى مؤلف النوادر السلطانية صاحب الاعلام (قاموس تراجم) وزعم ان مؤلف الاعلاق الخطيرة كون رحالة . وان كتابه المذكور «رحلة» . وقد جهله كل الجهل . وترجمه بزهاء سطرين فقط (٣ : ١١٧٩ و ٢ : ٥٩٥)

٢) المجلة البطريركية ج ٨ سنة ١٩٣٢ ص ٥٢٥ ٣) ياقوت ٣ : ٧٢٩ (طبعة اوربة)

ومما يزيد في التحسر على نقص مخطوط الاعلاق الخطيرة ان كل من كتب بعده على حلب ودمشق ، واراد تعداد ما في كلّ منهما من الجوامع ، والبيع ، والمدارس ، والزوايا ، والحمامات ، والمحلات ، والحارات ، والاقنية ، وسائر الابنية والمصانع ، لم يجد غنى عن الاستناد الى ابن شدّاد ، والاستشهاد باقواله . فكان كتابه منذ القرن السابع منهلاً يستقي منه كل من اراد تعريف شيء من خطط المدينتين . واشهر من نقل عنه ، وعلّق عليه محبّ الدين بن الشحنة ، في كتابه « نزهة النواظر في روض المناظر » . وهو كالشرح لتاريخ والده المطبوع بعنوان « روض المناظر في علم الاوائل والاواخر » . وكانت وفاة محبّ الدين بن الشحنة سنة ٨٩٠ للهجرة (١٤٨٥ م) ولا نعلم انه يوجد من تاريخه المشار اليه نسخة كاملة . ولعل اكثر ما حفظ منه مروّي على اختلاف في الضبط والامانة في المختصر المعروف بعنوان « الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب » المنسوب خطأ مع ما تداخله من زيادات النساخ الى محبّ الدين محمد بن الشحنة . وهو الكتاب الذي تولّى طبعه المرحوم يوسف بن اليان سركيس سنة ١٩٠٩ ، دون ان تهوله كثرة ما فيه من التحريف والتشويه واللحن ، ولاسيما في ضبط الاعلام . ومع انه ، كما قال ، عني بمقابلته على اربع نسخ مختلفة ، وبذل جهده في تسديد بعض ما تصحّف فيه باقلام جهلة النساخ ، لم يُوفق الى احسان نقده واصلاح فاسده ، بحيث بقي الكتاب كثير الاوهام جمّ الاغلاط . ولما استحسن اخيراً كاتب سرّ المعهد الفرنسي بدمشق مسيو سوفاجه العالم الاثري نقل فصول منه الى الفرنسية[1] ، وخدمها احسن خدمة بالتعليق والتحقيق ، اسفنا جداً لعدم احتياطه قبلاً بمعارضة هذه الفصول على بقية الاصل المخطوط من « نزهة النواظر » . او بالحري بمراجعة الجزء المحفوظ من الاعلاق الخطيرة في روما ولوندرة . وهو الاصل الذي استمدّ منه ابن الشحنة كل ما رواه من تاريخ حلب وخططها . وقد فاتتنا ايضاً هذه المراجعة ونحن نطالع مخطوطات بريتيش موزيوم ، لعدم تحصيلنا هنالك نسخة من الدر المنتخب المطبوع ، وألهانا درس ما تكلّفنا السفر

(١) J. Sauvaget. *Les Perles Choisies d'Ibn Ach-Chihna (Mémoires de l'Institut Français de Damas)* Beyrouth 1933.

من اجله عن مثل هذا الفضول . ثم تفرّغنا اخيرًا لهذا النقد فلم نكد نجد صفحة خالية من شائبة ، مبرّأة من خلل او تبديل وتحريف . وبلغنا قريباً من الباب العشرين (ص ٢٢٦) وقد اجتمع امامنا من جريدة الاغلاط الواضحة ما ملأ سبع صفحات كاملة . فيها ما له اجلّ شأن في الاعراب ، والرسم ، واللغة ، وضبط الاشعار والاعلام . فتمثّل لنا حينئذٍ سأم القراء من سياقة هذه الاستدراكات المملّة ، وقلة ارتياحهم الى مثل هذه التصحيحات الطويلة الذيول . فاخترنا العدول عن هذا الاستقصاء في حقّ كتاب منحول النسب دعي في الادب الى الكلام عليه جملة ، وكشف النقاب عن اصل وضعه ، وحقيقة جامعه ، بينما يتيسر لنا تحصيل نسخة سويّة كاملة من الاعلاق الخطيرة لنخدم بها العلم والوطن ، اذا أعان الله على هذه النية .

واول ما نبدأ به اسم الكتاب « الدر المنتخب » . وهو ليس لابن الشحنة — وقد سبق ان اسم تاريخه « نزهة النواظر » — ولكن لابن خطيب الناصرية المتوفّى سنة ٨٤٣ للهجرة (١٤٣٩ م) ذيّل به على تاريخ ابن العديم « بغية الطلب في تاريخ حلب » . ولابن خطيب الناصرية ايضاً اكثر لفظ المقدمة الاولى المطبوعة . الحقها الجامع بمقدّمة اخرى وجيزة من عنده صرّح فيها ان الكتاب نبذة انتخبها من « نزهة النواظر » . وهذا اغرب ما في الكتاب ان يُنتحل له عنوان وخطبة من مؤلف ، ومتن من مؤلف آخر . ثم يُخلط ايضا هذا المتن باقوال وحواشٍ شتى لمصنفين ونساخ مختلفين ، في ازمنة متباينة ، بحيث اصبح هذا المجموع كشكولًا او شبه سفينة نوح .

وقد تعدّدت نسخ « الدرّ » على علّاته حتى لا تكاد تخلو منه اهم الخزائن في الشرق والغرب . ويُستفاد من النسخ المحفوظة في الڤاتيكان رقم .V 286 و .B 286 ، وفي باريس رقم 3168 ، ان اول من اختار هذه النبذ من تاريخ ابن الشحنة هو زين الدين احمد بن علي بن الحسين المعروف بالشيفي . ورتبها على ٢٥ باباً . ولابن الملّا الحلبي مختارات نظيرها من التاريخ نفسه في ١٧ باباً فقط كما هو مذكور في نسخة منها في خزانة اكسفرد رقم Laud. Or. 206 ثم جاء بعد الشيفي نسّاخ علّقوا على مواضع من ابوابه حواشي نبّهوا فيها على

ما استجد في زمانه . ومنهم ابن اليمن المعروف بالبتروني المفتي والمدرس بمدرسة خسرو باشا بحلب . وبعض تعليقاته بتاريخ اواخر ذي القعدة سنة ١٠٣٦ (١٦٢٧ م) ولا يخلو كل منها من فائدة اثيرة . وعلى هذا المنوال كان كل من عُني بهذا الكتاب من النساخ الحلبيين يضيف اليه ما يعنّ له ويدمجه في المتن دون ان يذكر اسمه ، او يشير الى مأخذه . فاجتمع في الكتاب على التوالي عدّة ملحقات واقوال نُسب بعضها الى ابن الشحنة نفسه مع ان تاريخها متأخر عن زمانه ، كالزيادة التي زيدت في الكلام على المدرسة الاسدية (ص ١١٩) رُوي فيها عن ابن الشحنة انها خربت سنة ٩٣٥ (١٥٢٨/٩) . ومعلوم ان ابن الشحنة توفي سنة ٨٩٠ . ومثلها ما جاء في تعريف المدرسة المجدية (ص ١٢٠) وانها دثرت ولم يبقَ لها اثر ولا عين سنة ٩٣٦ (١٥٢٩/٣٠ م) . ومن هذا القبيل ايضاً ما نُقل عن لسان ابن الشحنة ان ادنة جُدّد لها قامة حصينة في الدولة العثمانية (ص ١٨٢) وهو قد تقدم زمانها بسنين كثيرة .

ومن هؤلاء النساخ المحشين ، بل في طليعتهم ، الشماس بولس الحلبي ابن البطريرك مكاريوس الزعيم . ونُسخته هي اكثر ما تُرى في الخزائن العامة . ومنها نسخة بخط يده ناقصة اكثرها كاتب آخر منذ اوائل الباب الثاني عشر . وقد يذكر اسمه في خاتمتها . وهي محفوظة في خزانة جامعة ليدن ، رقم (٨٢٠ : Arab) وكان الشماس بولس مولعاً بالنسخ والتحشية ، ونقل اقوال المؤرخين في كل موضوع يحاول استطلاع اخباره . ومن هذا النوع كتابه في تاريخ انطاكية المحفوظ عندنا بقلمه . دوّن فيه كل ما وقف عليه من كلام المؤرخين في الشرق والغرب حسبما قرأه في المخطوطات العربية التي اتصلت به ، او رتب نسخه بقلم المرسلين اللاتين في حلب . وكان شديد التعلق بوطنه ، مشغوفاً بتاريخ مسقط رأسه . ولذلك عُني بنقل « الدر المنتخب » ، واخذ به كعادته كل ما عثر به في مظانّاته من زيادة في صفة حلب ، او بسط في الشرح ، لكل من المؤرخين الاسلاميين او المسيحيين مَن بلغته مؤلفاتهم . وقد نبه اكثر المؤلفين على هذه الملحقات والتعليقات بقوله « حاشية لكاتبه وجامعه » . وصرّح في نسختي الثانيكان باسمه ونسبه فقال : « قال كاتبه الفقير بولص ابن بطرك الشام

مكاريوس » . وقد اندمجت حواشيه وزياداته في متن الكتاب في بعض النسخ حتى ذُكرت كأنها لابن الشحنة نفسه . وبلغت جملتها احياناً عدة اوراق متتابعة كالتي في الصفحات ١٩٧ و١٩٨ و٢٠٠-٢٠١ ومنها ايضاً اغلب ما في الصفحات ٢٠٧-٢٢١ . ومن هذا القدر وحده تتضح كثرة ما ادخله الشماس برلس على المتن وابدل به نظامه ، وشوّش كيانه .

وقد كان يكفي للتنبيه الى ما احدثته يد الشماس ووالده البطريرك من التصرّف بالكتاب استشهاده بتاريخ « الدر المنظوم في اخبار ملوك الروم » (ص ٢٤ و٢٠١ و٢٠٣ من المطبوع) ومعلوم ان مكاريوس هو الذي عرب هذا التاريخ من الرومي . وروايته بعض الاخبار من « الكتب القديمة الرومية » (ص١٨٠ و١٨٨) ونقله عن « القسيس ميخايل الانطاكي في بدء خبر يوحنا القس الدمشقي » (ص ٢١٢) . وقوله في الكلام على وادي الفوّار وما تحته من السرداب « هذا المكان تحت دير مار جرجس الحميرة وشاهدناه » (ص ٢٦٦) . وإكثاره من الاستشهاد باقوال كتبة النصارى كالبطريرك سعيد بن بطريق ، ويحيى بن سعيد الانطاكي ، ومحبوب بن قسطنطين المنبجي ، وجرجس بن العميد ابي الياس (وليس ابي الياس) ، والمفضل بن ابي الفضائل في تاريخه النهج السديد .

والمشهور ايضاً كل ما ورد من اقوال المؤرخين الاسلاميين كالمسعودي ، وسبط ابن الجوزي ، وابي علي القالاني ، وصاحب النجوم الزاهرة ، وابن الوردي في خريدة العجائب ، والخبابي ، وابن الملا ، وسواهم ممن لا نطيل باستيفائهم . ومن هذه النقول كلها تتبين ايضاً وفرة نصيب الشماس في هذا المجموع الخليط .

وجملة القول ان « الدر المنتخب » ، كما هو على علاته ، لا يصح مطلقاً ان يُنسب برمته وعنوانه الى ابن الشحنة . بعد ان تداولته اقلام النساخ ، وعبثت به ، ودسّت فيه ما ليس منه ، وافسدت كثيراً من نثره ونظمه ، ورسم اعلامه ، حتى ذهب اللحن والخطأ فيه كل مذهب . ولا يصح ايضاً ان يؤخذ عنه ، دون تحرز شديد ، ولا بد من معارضته بنسخة الام ، اي « نزهة النواظر » ، وفرز المتن فيه من التعليقات والحواشي ، وايضاح ما اشكل فيه بمراجعة الاصل الاول وهو الاعلاق الخطيرة .